



البجثة الحية!

تيليات

استنامة القمر وشاطرها أحرابها . حمل عبود فوق ظهوره وتاه في ظلمة الليل . امتدت يد المريح إلى لعقلها التبرار ولطمته لطيفة جبارة أطاحت بأسانه وأضرابه . فكذب بدهول والقصاب بعمه الأهم : « ٢٣ فبراير ١٨٩٥ » . طفل الرقيق فانتشكا مات هذه الليلة في الساعة الحادية عشرة . يا الهي ! مات صغيري ومازلت على قيد الحياة ! ... ثم سكنت قلماها عن الكلام . وارندى ثوب الحداد ستين .

بكى الأب أيضا وانتحب . تحرق فؤادي وقاسي الباربح . حززله في قلب قلعه . فأرضى العنان لأساء وبأسه . وكذب هو أيضا في نفس يوم الوفاة : « لأول مرة في حياتي أحد نفس في مأزق بلا مخرج » .

موس استنامة

في يوم تسليح الحارة . وفقت مركبة جليد كيرة امام بيت القبيلة التولستوية في موسكو . حمل الأب وأبناؤه العيش على أكفهم . ووضعوه في المركبة . ثم جلس تولستوي وزوجته وسط باقات الزهور إلى جوار طفلها الميت الذي يرفد في العيش لمكتشف كما جرت العادة في روسيا . بكى السماء من تلح . فشاب مغارق الأرض من ألم . وروى الحزن الخليل تحت عظوات بطيئة وكنية فوق الخليل في الطريق إلى « نيكولسكي » الضيقة التي وزنها تولستوي عن أخيه بقولا : « التي يرفد في مغربها طفلها اليوشا اصطدمت النار في صدر تولستوي وأعلنت بلهبها ذاكرة » . إن هذا الطريق الذي يسير فيه الآن فوق ظهر مركبة وإن جواره بسمة ميتة . هو نفس الطريق الذي كان يمشي فيه على قديم والشمس بين يديه . منذ ثلاثة وثلاثين سنة . حيا كان يدب كزيارة حطيت في بيت أبيها أروبي في صواحي موسكو . قال لسونيا مايدور في خاطره . ارتفعت . أعذا الشيخ المقوس الظهر . الرمادي اللحية . التلعطن البشرية . هو عريس الأمس . الأسد الورد . مربع نظرها وعذقلها ؟ . أخذه الأم العصور . التكلن الباتسة . التي تأكل الوجع وتشرب الخرج . هي فناء الأمس للشرقة الوجه . الضاحكة التفر ؟ . شان مابين الأمس واليوم . إن بينها مابين النهار والليل .

صلصلت أجراس الكنيسة بنرات حورية مؤذنة في المصلان المودعين للملاك الصغير . ظلت سونيا طوال الصلاة على جنان طفلها . تحسك رأسه بين يديها . ولتم بشفيتها وجهه . لعل قبلاتها تلح بلهبها وسعيرها جموده . وتصهرو وتندبه . ألا تدب الحياة في أرواح الطبيعة بعد أن توت ؟ . ألا تفسح الأشجار عن أنفسها أكفان الثلج . وتبسل أجفانها الميتة بأشعة الشمس . فتفتح براعمها من جديد ؟ .

ثم حان وقت القدح . أغلق العيش . قطع الخليل السرى الذي يربط سونيا بالحياة خرجت إلى ظلمة الموت وهي تلوي

تحت سماء بلا أفق وفوق أرض بلا طرق مشت . . وجسدها الحي ينش بالموت الحي . . أمام قبر جثت خشوع الوجود للعدم . . فالقبر قبرها . . هنا ترقد زهرة دمها . . وعظام استناتها . . وشعاع شمسها . . هنا يرفد طفلها . . أكلت الدبدان لحمها وفقأت الغريان عينيها . . دار الليل في مقلتها وسقطت في هاوية الظلمات . . وفي قاعها عاشت . . والرماد طعماها والدموع فستانها .

وهذا ماثلت فيه فسوف يواصل رسالة أبيه . بل سوف يتجزأ أعمالا لتفوق في روحها أعمال أبيه . . .

لم يكن هذا هو رأى سونيا وحدها . إذ كان يشاركها فيه العديد من أصدقاء زوجها . إن العالم الإحيائي الروسي منشيكوف . بعد زيارة له للقبيلة التولستوية . كتب إلى صديق له : « ماكانت عيني تلح على فانتشكا حتى عرفت من أول نظرة إليه . إن هذا الطفل إما سيوت ميكرًا . وإما سيطرق على أبيه العظيم في عقرته » . أما تولستوي الذي لم يسره يوما مخلوق . فقد يره طفله ابن السوات السبع . وانبر من ليل روحه وعذوبة متقله . وذات يوم نالآلات دعة فرحة في عينيها حيا مع سونيا تلون لصغيرها إن صنيعة أبياسيا يوليانا سينا وأرضها . وأزهارها وأشجارها . سوف تكون يوما ملكا له . فرد عليها الطفل : « لانظروا هذا الكلام ياأماما . إن كان ماعلى الأرض ملك لكل من على الأرض ! » . وصدق ظن سونيا . فقلب الأم دليلها . لتدهورت صحة الطفل بسرعة مريعة اتناه الحوار . تداعى جسده . علا شحوب الموت جسده . امتزجت ألقامه ببحر جاناه . إن الحزن على قلوب من حوله . كتم الصغير الله الشفلا على آلام من حوله . رفا إلى أنه يحان وقال لها بصوت البراءة الملهمة التي لاعدم الأمل : لاينكي ياأماما ! . وعكة حقيقة . بعد يومين سأتزه معك في الغابة . . . ثم أغضى عينيته . وواجه الموت يدهو وشجاعه .

مات . . ضمه الموت إلى صدره وطار به إلى الجنة . على جناحه في مكانه على السريو . وإلى جواره جنان آخر . حلة حية . . جسد ينش بالموت الحي . . أم لكل ليكي بدموع وثابة . وتندب بكلام يذيب الحداد . وتصبح يوحشية . وثابة تخرج صبيحتها كعواء . وثابة كزئير . وثابة ككتاب . وثابة كعق . إن الموت تسلل إلى دمها وروح يدور فيه كالظاحونة . طحن بصوات قلبها وترك لها أنفاسها لتسح بها يحوط كفتها . فهو يعرف أن الدرب المعجون بالرماد هو الفراش الذي يطيب لها فيه الرقاد . نزلت أحيانا الصورة وسليها الله نعمة الدموع . ذلت أوراق



لبنى تولستوي من كتابة آخر لفعة له . « سيد وحادم » . وعلى غير عادته رفض أن يهدىها لزوجه ولدان لشرفا . متحججا بأنه وعد رئيسة تحرير مجلة « رسول الشمال » بأهدائها لها . سمعت مجلة الغيرة سونيا وتعكر دمها . ثارت لكرامتها كروجة ولحزانتها كاشرة . أطلقت مدفعية لسانها على زوجها . تصدى لها بالصواريخ المضادة للدبابات ونسف أمها . لم تتحمل المزعجة وبكل سق عمرها الحميمين صرحت بأسها . وبكل عضون وجهها غارزت الموت . احطرها الموت وهرب منها . طاردته فوق الخليل وتحت عجلات التفتار . وفشت كل محاولاتها للانتحار . انتابها نوبات هوس واكتئاب . فأشلق عليها زوجها من الحنون . وتنازل لها عن قصته . فسجلت برهو وسرور انتصارها . وكنت .

٢١ فبراير ١٨٩٥ . أخيرا حصلت على سيد وحادم . ولكن أبي ناس كما ذكرت في الأسبوع الماضي .

فستان من دموع

لكن في بيت القبيلة التولستوية السرور غرور . لأن كل فرحة فيه تنبعها ترحه . وكل بسمة فيه تلبها دعة . وكل نعمة تلح عليه ليح بعدها محنة وكارثة . فلما أبدأ في هذا البيت المنحوس بعد اليسر عسر . لاالعكس . ففي نفس اليوم الذي سجلت فيه سونيا انتصارها على زوجها . ارتفعت فجأة درجة حرارة طفلها فانتشكا . وظهر طفله وردى على جلده . مع احتقان شديد في الخلق مصحوب بحفاف وصعوبة في البلع . استدعى الطبيب على الفور . ففحص المرض على أنه الحمى القرمزية . ورفق طائر الموت يحاحيه وحلق في الحجرة . إن التسلن ومركبات السللا لم تخزع بعد . سقط صمت مقدى على رأس سونيا واستحوذ عليها خوف طاق . زهرة كهولتها متموت قبل أن تتفتح أوراقها . الموت يستل طفلها من بين أحضانها . إنها على يقين من ذلك ومنذ زمن طويل . كم من مرة ارتفعت فلما إلى جوار سريره . والمرص ينش جسده نثا . كم من مرة تكهنت بمصبتها . كم من مرة بشت الورق حيا له . واضعاجيا الشديد به . وقلتها الرهب عليه . أم تكذب أميرا . فانتشكا هو سلوى وشعاع الشمس الوحيد في دنيا الظلمة . إنه أقرب أطفال إلى قلب لأنه أقربهم إلى الكمال . وكان يدينه من السماء ويبعده عن الأرض . لأن الكمال صفة السماء . كم أغضى ألا يعيش ؟ إنه طفل رقيق القلب . سخي الخنان . حاد الذكاء . إذا عاش

بعضها إلى بعض كالجثث عند خروجه إلى نور الحياة . وقد ظلها
 أن جوار أحبه على فراشه البارء . وحسب به التراب باليد
 البهية . فالتراب أبداً ينشر بالخور . وأبداً لا ينشع . جللت
 سباط الفراق أحشامها . أشد طموها إلى كأس العدم . حيث
 فوق العشب الشاحب أملاً في أن يتلها التراب . بلدها التراب
 وطرحتها على شاطئ دنا الأحياء .

وطلمت الشمس السوداء !

عاشت سونيا بين جدران سجن الحياة . والظلمة نورها . والرماد
 طعامها . والدموع فستانها . إنها قبر . بل مقبرة . في دما
 رفات حمسة من أطفال . الزمن يسيل بين يديها والليل يدور في
 منقلبها . إن ابتسامة آخر أطفالها لم تعد تير قلبها . هامت على
 وجهها في البيت حشرت بعينها الهواء ووزعت فيه ليها . مشت
 فيه . خرجت من لها كلمة من مقطع واحد . مات .
 انفصلت عن شفتها ففاعة على . انتشرت في الفضاء ولم يرددها
 العدى . فهي كلمة بلا وزن . سقطت على الأرض . فلم
 يهاثت عليها النحل . فهي كلمة بلا عسل . تلتدعت في الظلمة
 الخائفة . ومع كل خطوة تخطوها تلو . مات . وتخرج من لها
 الطقات . قالت للزوجة المظلمة بالسواد . مات ! قالت للجدران
 . مات ! . قالت لظلمتها . مات ! . لم يسمعها أحد . ولم
 يرد عليها أحد . فحمت الظلمة بأمل أن ترى شعاع شمسها بلب
 كعادته في الخديعة . فرأت بين أمواج الظلام شمساً سوداء
 فانزلت شمس سوداء . أرقق الضوء المنحصر عيناها وسمعت
 الأشعة الخليلية بشرتها . عادت إلى الجدران قالت لظلمتها بلهجة
 حازمة . مات ! . فلم يتر لأرملة ولايته ولاطينه . نبتت
 بعينها الجدران . ووجدت صالتها . رأت شقوقاً نبتت بلورة أمل
 في يأسها . لما الشقوق إلا أبواباً ترهبها بدخول أي شيء . لماذا
 لا تكس حزنها بين شقوق الخائط ؟ . ففتحت منه . وفتحت
 شفتها على شق في الخائط . وهمت له بصوت مكسور
 . مات ! . عادت الكلمة إليها . غمرتها الأحزان . إن
 الطوب له شقاء لا تصفح أبداً . حيث يديها على الخائط
 وديديها بقدمها على الأرض . لم تسمع صوتاً . فقط الصمت
 صمت القبور . فرصت ذراعها . لم تحس بشيء . فجعلتها
 حامد ودعها بارد . إن طفلها مات . حملت بين ذراعها
 مقلداً . وضمت ظهره إلى صدرها . وهددته . فهو لم يطلب
 يوماً منها شيئاً . ومن لا يطلب منها شيئاً يستحق أن تهدده . نام
 التلعد بين يديها . أبلفته وغصت حشيه وقالت له . مات !
 لكن الحاد لا يلبث بالوت . وعينه جمود لا تعرف الدموع .
 صرحت . فانحشرت الصرخة في حلقها والغزوت في الرماد الذي
 تفلأ لها . هبت لسجدتها فرقة مطلق الحزن . تفجرت الدموع
 في غروفها وهطلت على صدرها . لم تذهب لوعتها . وواصلت
 سيرها في ليها . فالمرارة شهدتها والحزن سرورها .

الحزن سروري

لم يستسلم تولستوى للحزن . كروجه . فهر أنه بالنسبة
 كتب في يومياته في نفس يوم نشيع جنازة ابنه ٢٥ فبراير
 ١٨٩٥ . دفنا اليوم فانتشكا . شيء رهيب . لا ليس رهيباً
 إن مونه لحقت بروحي عظيم . أشكرك يارب ! أشكرك يارب !
 وكتب بعد يومين
 « إن موت فانتشكا هو دليل على حب الله لي . اصطفى الله ابن
 ليحيا من جديد حير حياة قدرت له . أم يقل المسيح حبة
 الخبطة التي تسقط على الأرض . إن لم تحت ليق وحدها . ولكن
 إن ماتت فإنها تأتي بنشر كثير . لذلك لا أستطيع أن أقول عن
 هذا الحدث إنه محزن وأليم . بل إنني أقول بلا تردد إن هذا الحدث
 إن لم يكن حدثاً سعيداً - فهذا اللفظ في غير موضعه - إلا أنه



سونيا
 طفلة

حدث زعيم مادام الله أنعم به . ليبرهن في كل غرور الدنيا
 وليثبتني منه ليفوزي إيماناً به . لكن وآساءه . سونيا لا تستطيع
 أن تواجه رحيل ابنها غنا كما أواجه أنا . إن لوعة الفراق تحجب
 عنها القيمة الروحية لهذا الحدث !

ثم حاول تولستوى أن يفتح نفسه بأن طفله لم يمت عنا . إن الله
 أرسله إلى الدنيا ومع رسالة . إن ابنه هو . السنونو المبشر . الذي
 يطير في الربيع مبشراً بدموع الخلد وصفاء القلوب من الخلد
 والبغضاء . وخضوعاً لرغبة ملاك الصغار ضاعف حثائه
 لزوجه . فانتعش قلبه . وكتب قلعه التي عنته الكسليين
 ١٢ مارس ١٨٩٥ . أبداً لم أحب سونيا كما أحبها الآن . وهذا
 يستعد

لكن سونيا في ظلمات ليها لا ترى . ولا تسمع . ولا تحس بشيء .
 يوماً بعد يوم . تحمل صليباً على كتفها . وتسير في طريق
 الأشوك . مجر أمام قبر ابنها تخشع الوجود للعدم . تحرق الحور
 وتتر العظور وتلتر التلور حتى يجمع شملها معاً من جديد . ثم
 تلجأ إلى الكنيسة . تركع وتقبل الركوع . تصل وتقبل
 الصلاة . ثلاث ساعات . خمس ساعات . سبع ساعات .

سبع ساعات . كما حدث لها أكثر من مرة من كانتاتالية
 أركانجسكي .

حاول تولستوى أن يتقبل زوجه من دنيا أحراباً بأن يعرفها في
 آخران الغير . زار معها إحدى السجون ليرى بعينها ما يعانيه
 المسجونين السياسيين من عذاب وتكيد . لكن سونيا بعين ترجسية
 لا ترى سوى نفسها . قال لها في قلبه وقلبك تفجرت عاطفة
 جديدة . فرت كلا منا من الآخر . وهذه العاطفة كششمس
 الأصيل . فن حين لا تظفر في الأفق غيوم خلافاتنا الصغيرة .
 فتحبب عنا ضوء الشفق . لكن على لغة من أن هذه العيون
 سوف تنقش قبل سقوط الليل . وسوف يكون غروب الشمس
 مشرقاً . سمعت سونيا كلامه العنود والغروروت عيناها بدموع
 من شهد . ثم سرعان ما عادت إلى دموعها المعيرة بالرماد
 والخطل .

يأس أبو الآلام من بنت الأحران . ماذنيه إذا كان يصبر
 لخصيته ؟ . إن الله مع الصابرين . ماذنيه إذا كان يريد أن يعين
 ليواصل رسالته ؟ . ماذنيه إذا كان الحزن لا يصد عن العمل ؟
 إنه يفكر الآن في كتابة « قصة كولي » التي غير عنوانها فيما بعد إلى
 « البعث » . إن قلعه عنه على الكتابة بعد النجاح المذلل لروايته
 « سيد وخدام » . إن دار نشر الوسيط باعته في أربعة أيام فقط
 خمسة عشرة ألف نسخة . واخره الرابع عشر من مجموعة . أعاليه
 الكاملة . الذي يضم هذه القصة . باعته من سونيا حتى الآن
 عشرة آلاف نسخة . والصحافة تفرط الكتاب . والشقاد بها لول
 عليه بكلمات المدح والثناء . إنه لم يسمع كلمة هجاء واحدة
 وهذا يذكره بنكهة الواعظ الذي فوجئ بعد عبارة قالها بعاصفة من
 التصفيق . فسكت . ولم يسل بدعوى . قلب حلاقة ؟ . لا بد
 أن تكون قصته بشعة والألفاظ تار حولها كل هذه الضجة ؟
 مادام الكل يصفون عليه بكلمة دم . فسوف يتقدها هو بنفسه .
 ويرسل إلى الصحف ليقده تحت اسم مستعار .

كتب تولستوى القصة . ودم لنفسه بنفسه . ثم كتب يوم ٢٧
 مارس وصيته الأدبية . وفيها تآزل عن كل أولاده الخاصة إلى
 سونيا وعدوها اللدود تشرخوف . على أن يختار منها ما يصلحة
 للنشر . وطلب ألا تندخل ابتداء نائيا وماشا في هذا العمل .
 ولأولاده الذين رغم جهم له لا يؤمنون بمبادئه . وطلب أيضا أن
 تحرق كل يومياته التي كتبها قبل زواجه . عدا بعض الصفحات التي
 عبد نشرها . ثم أضاف : « لا داعي لأن ألق نفسي على
 يومياتي . إن تشرخوف وعدل بأن يقوم بالأمر في حيال .
 ونظرا غيبته في . وتعصبي في . قال على يقين من أنه خير من يقوم
 بهذه المهمة » . وبراءة الرجال العاقرة لم ينشر تولستوى بأن
 وصيته صفة لزوجه . وإلا لما أوصى بأن يكون عدوها اللدود
 هو الحكم الأعل في اختيار ما يجب وما لا يجب نشره من مذكراته
 الخاصة بحياتها الزوجية .

ثم في اليوم التالي مباشرة أخذ ابن السبع والستين سنة أول درس
 في ركوب الدراجات . فقد أعدت له . الجمعية الموسكوفية لحواء
 الدراجات . دراجة . وأرسلت له معلماً . حتى لا يفلد توازنه
 وتتكسر عظامه وهو يجري فوق عجلتين . لم تغلق سونيا بئس على
 هواية زوجها الجديدة . أما تشرخوف للمبده تولستوى الفتح .
 فتدبر وكتب لاستادته إن ركوب الدراجات يتعارض مع المبادئ
 التولستوية والثالية المسيحية . فكان تعليق معلمه تولستوى :
 لا أحب أن أركب دراجتي . ورغم أن تشرخوف يقوم
 ويتفقد . فسأواصل ركوبها . وأنه في هذا الحال لا يبيع . رأى
 غيره أيضا أعطيت أن أفر وألقب كطفل ؟ . ما العار في
 ذلك ؟
 ثم جاء الصيف . ومع الصيف والتابع . ولكن هذه
 حكاية أخرى بطول شرحها .



العدد ٢٢٠ - الأحد ١١ يناير (كانون الثاني) ١٩٨١

